محمد في أطوار حياته

دكتور حسين

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)
(سورة يونس — ١٦)

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معجزته الكبرى هذا القرآن الكريم بفصاحته الباهرة وما جاء به من تشريع قويم في أصـــول الدين وفروعه ، على أنه كان مع هذا يلجأ إلى العقل فيستعين به في تأييد رسالته ، وإلى العلم فيستخدمه في إثبات نبوته ، وإلى هذا تشير تلك الآية الكريمة من سورة يونس (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)

فهو يقيم في هذه الآية دليلاً على صحة نبوته يستند إلى دراسة تاريخه قبل النبوة وبعدها ، وإلى دراسة نفسه في هذين الحالين ، والدراسة الأولى فرع من علم التاريخ ، والدراسة الثانية فرع من علم النفس ، وسنقوم الآن بهاتين الدراستين ، ونتتبع فيهما أطوار حياته صلى الله عليه وسلم

الطور الأول : ولد صلى الله عليه وسلم يتيما عائلا ، لم يرث من والده شيئاً ، لأن أباه مات قبل جده عبد المطلب وهو شاب لا يكاد يجاوز حد العشرين ، فلم يرث شيئاً من مال أبيه ، ولم يتمكن من أن يجمع شيئاً لابنه . بل مات بعد شهرين من حمله ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت بعد موت أبيه ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم كفله بعد وفاة جده عمه أبو طالب

وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب ، ولا تعرف ما تستنه البادية العربية في معيشتها من الغزو والنهب ، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على غريزة قومه ، محباً للعمل ، راغباً في الكسب الحلال ، وهو الذي قال بعد هذا في رسالته : أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده

فلما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً أخذ يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، ثم مضى في هذا العمل بعد أن رجع إلى مكة ، فكان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأخذها منهم ، كما روى هذا الامام البخاري في صحيحه

وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللهو البريء ، وتدركه عناية الله فيه كما تدرك كل شاب موفق ، وقد حكى عن نفسه في ذلك بعد رسالته فقال : لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغض إليّ الشعر ، ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها حتى أكرمني الله برسالته ، قلتُ ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرَ كما يَسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدُّفوف والمزامير لعُرْس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرّة أخرى مثلُ ذلك

الطور الثاني : فلما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة أخذ يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب ، فسافر معه إلى الشام للتجارة وهو في هذه السن ، ولما حذق التجارة انفرد بنفسه عنه . وكان في مكة سيدة تاجرة ذات شرف ومال تدعى خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي ، وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه ، فسمعت عنه من الأمانة والصدق ما رغبها في أن تستأجره للتجارة في مالها ، وكانت سنه في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة ، فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام للتجارة ، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيما ، فسرت به تلك السيدة الكريمة ، وكان زوجها قد توفي ولم تتزوج بعده فأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين ، فقام مع

أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها له منه عمه أبو طالب ، فزوجها عمها له ، وصارت بهذا زوجه خمساً وعشرين سنة ، وكان يعمل فى مالها ويأكل من نتيجة عمله ، على أنها ما كانت تضن عليه بشىء منه

الطور الثالث : وكان فى نفسه صلى الله عليه وسلم ميل إلى عبادة ربه ، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية ، فلما رزقه الله بتلك الزوج الكريمة ، وصار له مال يساعده على قضاء حاجة نفسه من عبادة ربه ، كان يقصد كل سنة فى شهر رمضان إلى غار حِرَاء ، فينقطع فيه للعبادة ، وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها ، ولم يبتدع منه صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً لم يكن يفعله أحد من قومه

وكان يخلو بهذا الغار فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارة عشراً ، وتارة أكثر إلى شهر ، ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى زوجه فيتزود لمثلها

وهذا الطور آخر أطواره قبل النبوة ، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وسلم فيها وجدناه رجل عمل يعتمد على نفسه ، ويأخذ فى ذلك بما اشتهر به قومه من الحذق فى التجارة ، والرحلة فيها إلى الأقطار القريبة والنائية ، لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يهتمون بغيرها مما كان يهتم به غيرهم من العرب ، حتى عيرهم بهذا بعض شعرائهم فقال :

ألهى قصيًّا عن المجد الأساطيرُ ورشوةٌ مثل ما ترشى السفاسيرُ
وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له وقولها رحلت عيرٌ أتتْ عيرُ

وكان فى هذه الحياة العملية من أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، حتى كان من أفضلهم مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، فأحبوه وركنوا إليه ولقبوه الأمين حتى غلب على اسمه هذا اللقب

وكان على علمه بفساد ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما إليها يكتفى من هذا بالعزلة التى أخذ نفسه بها ، ويأخذ بما يأخذ به بعض الناس من الاهتمام بإصلاح نفسه وعدم الاهتمام بإصلاح غيره . وكأنه كان يضن بذلك الحب الذى يحبوه قومه به أن يفسده بتخطئتهم ، وتسفيه ما ألفوه من عبادة أصنامهم ، فمضى لا يهمه إلا أمر نفسه ، ولا يعنى بشىء من أمر غيره ، اللهم إلا بعض الأعمال الصالحة التى كان يقوم قومه بها ، فكان يشاركهم فيها ويقوم بنصيبه منها ، كما حصل منه فى حلف الفضول بدار عبدالله بن جُدْعان التَّيْمى ، وكان المتحالفون فيه بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، وبنى أسد بن عبد العزَّى ، وبنى زهرة ابن كلاب ، وبنى تيم بن مرَّة ؛ تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته ، فحضر محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مع أعمامه وقال فيه بعد رسالته : « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حُمُرَ النَّعَم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت »

ولم يعن صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار بشىء من الفصاحة والبلاغة ، ولم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً ، بل كان يكره الشعر كرهه لعبادة الأصنام ، مع أن الجزيرة العربية كانت تعج فى ذلك الوقت بالشعراء والخطباء ، ولكن قريشاً كانت لا تعنى بشىء من ذلك ، وإنما كانت تعنى بالمال والتجارة عناية أبناء عمومتهم من اليهود ، حتى كان حظها من الشعر دون حظ غيرها من القبائل ، وإن كانت لغتها أفصح اللغات العربية ، وإن كانت مواسم الأدب وأسواقها لا تقوم إلا فى بلادها

وقد قضى محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار أربعين سنة من عمره ، قضاها على ما وصفنا فى حياة هادئة ، وعيشة مطمئنة ، لا تحدثه نفسه فيها بشىء مما حصل منه بعدها ، ولا تطمح فى أمنيها وقناعتها إلى أكثر مما وصلت إليه فيها

الطور الرابع : وقد بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة فإذا به ينتقل فجأة من تلك الحياة الهادئة إلى حياة عنيفة يشتد فيها الخصام بينه وبين قومه ، وينقلب ما كان فيه من عدم المبالاة بأمرهم حرصاً على مودتهم إلى اندفاع شديد نحو الاهتمام بأمرهم ، وإن أدى هذا إلى انقطاع تلك المودة التى كان يحرص عليها ، وكان فى أهنأ ما يكون من العيشة بها بينهم ؛ وإذا به وهو ذلك الأمى الذى لم يجلس إلى معلم ، ولم يشتغل فى تلك الأربعين سنة إلا بما ذكرنا من التجارة ورعى الغنم ، ينقلب إلى خطيب لايدانيه

خطيب فى فصاحته ، وعالم لا يدانيه عالم فى علمه ، وبيده كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يدعو به الناس أجمعين ، ويهديهم إلى دين الله الصحيح ، وترك ما دخله من التغيير والتبديل والتحريف ، ويجلب على نفسه بهذا عداء الوثنية وزعمائها من قومه ، وعداء المجوسية وزعمائها من الفرس وأكاسرتها ، وعداء النصرانية وزعمائها من الروم وقياصرتها ، وعداء اليهودية وزعمائها من اليهود وأحبارها

فما هذا كله ؟ وما هذا الذى جعل من محمد الأمين بين قومه عدوهم اللدود وخصمهم العنيد ؟ لقد اختلفوا عند بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة فى الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه من الكعبة ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فلما دخل إليهم قالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه ووضعه فيه

فما هذا الذى جعله بعد هذا يعرض نفسه لأن يتهموه بكل شنيعة من القول ؟ فيقولوا عنه مرة إنه ساحر ، ومرة إنه شاعر ، ومرة إنه كاهن ، ومرة إنه مجنون

إنه لم يفعل هذا من نفسه ، ولو أنه خلى ونفسه لمضى فى تلك الحياة الهادئة إلى نهاية أمره ، وإنما كان يعمل فى هذه الحياة الجديدة بأمر طرأ عليه ، وغير من نفسه ما ثبت عليه فى تلك الأربعين سنة

فبينما هو في غار حراء قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، لأنه كان أمياً كما سبق ، فأخذه فغطّهُ بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، فقال : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال : « إقرأ باسم ربكَ الذى خلقَ ، خلقَ الإنسانَ من علقٍ ، إقرأ وربكَ الأكرمُ ، الذى علمَ بالقلمِ ، علمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ »

فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده مما ألم به من الروع ، فدخل على خديجة زوجه فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه روعه ، فأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك

ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره خبر ما رأى ، فقال له : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ثم قال : يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، فقال : أومخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى

وقد حقق الله نبوءة ورقة بهذه الهجرة التى نحيي ذكراها كل سنة

وهذا هو حكم التاريخ وعلم النفس فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يا إلهى بعض جهادى فى نصر دينك أشكو إليك ما ألقاه بسببه من أذى ، وهو لذتي فى هذه الدنيا إذا التذ قوم بمتاعها ، وأنت حسبى ونعم الوكيل

عبد المتعال الصعيدى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً